٦١٠

الكناية

نماذج من البلاغة القرآنية «الكفاية والتعريض»

الدكتور محسن رائي

كلية الآداب ـ جامعة الشهيد بهشتي ـ طهران

من المتعارف لدى المسلمين أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وكتاب تربية ونظام حياة قبل أن يكون معرضاً لفن القول أو الحوار أو القص. وما هذه المعارض إلا وسيلة لإبراز هدفه الديني والتربوي وحتى هذه القضايا الفنية التي كثيراً ما ينكب عليها الباحثون ويجهدون في إبرازها لا ينبغي أن يتخذ الأدب الأرضي مقياساً لسموها في القرآن، بل الأدب القرآني نسيج وحدة لا يقاس عليه أدب بشر، نتعامل معه من خلال المقاييس التي نستنبطها منه، وإن كنا نستهدي في فهمه باللغة الإنسانية والأدب الإنساني أحياناً، لأنه أرسل للبشر، وخاطب البشر بلسانهم وبأسلوب مألوف لديهم، وإن كانت له خصوصياته التي تميّزه عن أدب الأرض وفنون البشر.

من خصائص أسلوب القرآن ومزاياه التي انفرد بها، وكانت هي السر في ذلك إعجازه اللغوي والبلاغي والاسلوبي.

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، والمزايا التي توافرت فيه قد جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، أفاض العلماء فيها بين مُقِلٍّ ومُكثرٍ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم وحفيت أقلامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قُلاًّ من كثر وقطرة من بحرٍ، معترفين بأنهم لم يزيدوا على أن قرَّبوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء في الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الاسلوب القرآني وخصائصه على

وجه الاستيعاب فأمر استأثر به مُنزله الذي عنده علم الكتاب.

مسحة القرآن اللفظية: فإنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلّى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذاك النظام الصوتي، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سُوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي، أن يسترعي الأسماع، ويثير الإنتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان، الى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بيئتهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إنّا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون﴾.

القرآن كلام الله المعجز للخلق في اسلوبه ونظمه ومحاسن تركيبه وغرائب انسجامه في علومه وحكمه وفي تأثير هدايته وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة وفي اشتماله على المعاني الدقيقة ومن كل باب من هذه الابواب هذا الى أن كلّ ما كتبه المتقدمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كالرماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني، وغيرهم، فإنما ينحون به هذا النحوَ من انتزاع أمثلته في القرآن، والإضافة في أبوابها ثم ما يداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعرهِ ونثرهِ ومن أجل ذلك قلنا آنفاً: إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.

وفي هذا الاتجاه أشار مؤلفو كتب الإعجاز الى أن القرآن بديع في نظمه، عجيب في تأليفه، مباين لمذاهب العرب، خارج عن المعهود من نظام كلامهم، وله أسلوب يختص به، ويتميّز في تصرفه. وقال ابن خلدون: «وأما القرآن، وإن جاء من المنثور، إلّا أنه خارج على الوصفين» يعني وصف الشعر والنثر[١].

لقد حار العلماء في كشف حُجب البيان عن وجوه إعجاز القرآن، وبعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، حتى قال بعضهم إن الله تعالى قد صرف عنه قدَرَ القادرين على المعارضة بخلق العجز في أنفسهم وألسنتهم، وذلك أن إدراك كنه العجز والإحاطة بأسبابه وأسراره ضرب من ضروب القدرة والمقامُ مقامُ عجز مطلق، فالقرآن في البيان

والهداية كالروح في الجسد والأثير في المادة، والكهرباء في الكون: تُعرف هذه الأشياء بمظاهرها وآثارها، ويعجز العارفون عن بيان كنهها وحقيقتها، وفي وصف ما عرف منها أو عنها لذة عقلية لا يُستغنى عنها.

ولم يكن هدفنا في هذا البحث ان نقف عند هذه القضية طويلاً وحسبنا هنا أن نقف عند بعض المعالم ونلفت النظر الى بعض أساليب البلاغة وهي الكناية والتعريض في القرآن الكريم.

الكناية في اللغة مصدر كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به. والكناية في اصطلاح أهل البلاغة: لفظ أُطلِقَ وأُريدَ به لازمُ معناه، مع جوازِ إرادةِ ذلك المعنى.

الكناية من أساليب البيان التي لا يقوى عليها إلّا كُلّ بليغ متمرس بفن القول. وما من شك في أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع في النفس من التصريح.

وإذا تتبعنا تاريخ «الكناية» بقصد التعريف على مفهومها لدى علماء الادب والبلاغيين على تعاقب الأجيال والعصور فإننا نجد أبا عبيدة معمر بن المثنى «٢٠٩هـ» أول من عرض لها في كتابه «مجاز القرآن».

ومن العلماء المشهورين الذّين عرضوا الكناية بعد أبي عبيدة وعدّوها من محاسن البديع الجاحظ (٢٥٥هـ) في «البيان والتبيين» وتلميذه محمد بن المبرّد «٢٨٥هـ» في «الكامل» وابن المعتز «٢٩٦هـ» في «البديع» وقُدّامة بن جعفر في «نقد الشعر» وابوهلال العسكري في «الصناعتين» وابوالحسين احمد بن فارس «٣٩٥هـ» في «الصاحبى» وابن رشيق القيرواني «٤٥٦هـ» في «العمدة».

وممن عرضوا للكناية غير هؤلاء ونظروا إليها من زوايا وجوانب مختلفة عبد القاهر الجرجاني وأبو يعقوب يوسف السكاكي وضياء الدين ابن الأثير والخطيب القزويني ويحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

بلاغة الكناية:

والكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها، وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح لأن

٤٧٩٦

الانتقال فيها يكون من الملزوم الى اللازم فهو كالدّعوى بيّنة.

الكنايةَ مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يَصلُ إليها إلّا من لَطُف طبعُه وَصفت قريحته، والسِّرُّ في بلاغتها أنها في صور كثيرة تُعطيك الحقيقة مصحوبةً بدليلها، والقضيةَ وفي طيّها بُرهانها، كقول البحتُري في المديح:

يَغضُّون فَضلَ اللحظِ مِن حَيثُ مَابدَا لَهُم عَن مَهيبٍ في الصُّدورِ مُحبَّب[٢]

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح وهَيبتهم إيَّاه بِغضِّ الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال وتظهر هذه الخاصة جلية في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكنايات أنّها تَضع لك المعاني في صورة المُحَسّات، ولاشك أنّ هذه خاصة الفنون، فإنّ المصوِّر إذا رَسَمَ لك صورة للأمل أو لليأس بَهرك وجَعلك ترى ما كنت تَعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً.

فمثل «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم «ورَسُول الشرِّ» في الكناية عن المِزاح - وقول البحتري:

أو مَا رأيتَ المجدَ ألقَى رَحلَهُ في آل طَلحَة ثُمَّ لَم يتَحوَّل[٣]

في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة، كلٌّ أولئك يُبرز لك المعاني في صورة تشاهدها وترتاح نفسك إليها.[٤]

ومن خواص الكناية أنها تمكِّنك من أن تَشفي غُلّتك من خصمك من غير أن تجعل له اليك سبيلاً، ودون أن تُخدِش وجه الأدب، وهذا النوع يسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافورا ويعَرِّض بسيف الدولة:

رَحلتُ فَكم باكٍ بأجفانِ شَادِنٍ عَليَّ وَكم باكٍ بأجفانِ ضيغَم

وَمَا ربةُ القرطِ المليحِ مَكانُهُ بِأجزع مِن ربِّ الحُسامِ المُصمِم

فلوَ كانَ مابي مِن حبيبٍ مُقنَّعٍ عَذرتُ وَلكن من حبيبٍ مُعَمَّم

رمَى واتَّقى رَميي ومِن دُون ما اتّقى هَوى كاسرٌ كفِّي وقوسي وأسهُمي

إذا ساءَ فِعلُ المرءِ ساءَت ظُنونهُ وصدَّق ما يعتادهُ مِن تَوهم[٥]

فإنه كنى عن سيف الدولة أولاً بالحبيب المُعَمم ثم وصفه بالغدر الذي يدعي أنه من

٤٧٩٧

شيمةِ النساء، ثم لامَهُ على مبادهته بالعُدوان، ثم رماه بالجبن لأنه يرمي ويتقّي الرمي بالاستتار خلف غيره على أنّ المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله، لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوى قديماً يكسر كفَّه وقوسه وأسهمه اذا حاول النضال، ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه، لأنه سيئ الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظنّ أن الناس جميعاً مثله في سوء الفعل وضعف الوفاء. فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النَّيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً.

هذا، ومن أوضح ميزات الكناية التعبيرُ عن القبيح بما تسيغ الآذان سماعَه وأمثلة ذلك كثيرة جدّاً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا يُعبِّرون عمَّا لا يحسن ذكره إلّا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكنون عن المرأة بالبيضة والشاة ـ ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

ألا يا نخلة من ذات عِرْقٍ عليكِ وَرَحمةُ الله السّلامُ[٦]

فانه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها ـ عن البلاغة الواضحة.

الكناية والتعريض

تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملاً في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير، وهي حيناً راسمة مصوّرة موحية، وحيناً مؤدبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأُذن سماعه، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل. ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدّته الكناية، في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية.

فمن الكناية المصوّرة الموحية قول تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوماً محسوراً**﴾؛ ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة قويّة بغيضة منفرة، فهذه اليد التي غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية، والتعبير ببسطها كل البسط يصوّر لك صورة هذا المبذر الذي لا يبقي من ماله على شيء، كهذا الذي يبسط يده، فلا يبقى بها شيء، وهكذا

٤٧٩٨

استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً.

ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظّنّ إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ وتأمل كيف «مثل الاغتياب بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله. ثم لم يقتصر على ذلك، حتى جعله لحم الأخ، ولم يقتصر على لحم الأخ... فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جداً، وذلك لأنّ الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة،... ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله. إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، وهذا القول مبالغة في الاستكراه، لا أمد فوقها، وأما قوله (ميتا) فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها».

ومنها قوله تعالى: ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم، ولا جان﴾ فأنت ترى في قصر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلة العفة، ولو أنه استخدم عفيفات ما كان في الآية هذا التصوير المؤثر، ولا رسم أولئك السيدات في تلك الهيئة الراضية القانعة، التي يطمحن فيها إلى غير أزواجهن ولا يفكرن في غيرهم.

ومن الكناية المهذبة قوله سبحانه: ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمّه صديقة، كانا يأكلان الطعام﴾، ألا ترى في التعبير بأكل الطعام أدباً ورقّة تغنيك عن أن تسمع أذنك: كانا يتبرَّزان ويتبوّلان. ومنها قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ وقوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماء فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾ وهكذا كنّى الله بالملامسة، والمباشرة، والإفضاء، والرفث. والدخول، والسرّ، كما في قوله سبحانه: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء، أو أكنتم في أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهن، ولكن لا تواعدوهن سراً إلّا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾.

ومما يصح أن يوجه النظر إليه هنا، أن القرآن كان يلجأ إلى الصراحة، عندما يتطلبها المقام، فلا يحاور، ولا يداور، بل يعمد إلى الفكرة فيلقي بها في وضوح، ويقول: ﴿قل

٤٧٩٩

للمؤمنين: يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم﴾، ولا عجب في صراحة كتاب ديني، يجد في التصريح، ما لا تستطيع الكناية الوفاء به في موضعه.

ومن الكناية الموجزة قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا﴾ أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله، ومثل هذا التعبير كثير في القرآن. أما التعريض فهو أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكر، وأهم أغراضه الذّم كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم، إن كانوا ينطقون﴾ ففي نسبة الفعل إلى كبير الأصنام تعريض بأن الصغار لا تصلح أن تكون آلهة لأنها لم تستطع أن تدفع عن نفسها، وبأن الكبير لا يصلح أن يكون إلهاً لعجزه أن يأتي بمثل هذا العمل.

ومن باب التعريض أيضاً تلك الآيات التي على مثال قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وتلك طريقة مؤثرة تدفع السامعين إلى التفكير العميق، حتى لا يكونوا ممن لا يعقلون.

هذا، وقد سبق أن تحدثنا عن جمال استخدام (إنّما) عندما يراد بها التَّعريض.

المصادر:

١ ـ الاعجاز القرآني (اسلوباً ومضموناً) الدكتور شيلتاغ عبود بيروت.
٢ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوّية ـ مصطفى صادق الرافعي بيروت ١٤١٠ هـ.
٣ ـ الايضاح في علوم البلاغة ـ للامام الخطيب القزويني بيروت ١٩٨٠م.
٤ ـ الاعجاز الفني في القرآن ـ عمر السلامي تونس ١٩٨٠م.
٥ ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي طبع مصر ١٢٧٨.
٦ ـ التصوير الفني في القرآن ـ لسيد قطب مصر.
٧ ـ جواهر البلاغة لاحمد الهاشمي.
٨ ـ البحتري ابو عبادة ديوانه ـ بيروت ١٤١٤ هـ.
٩ ـ بديع القرآن ـ لابن ابي الاصبع المصري مصر ١٩٥٧م.
١٠ ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي بيروت ١٩٥٧.
١١ ـ اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني بيروت ١٤١٨ هـ.
١٢ ـ المتنبي ـ ابو الطيّب ـ ديوان شرح برقوقي ـ بيروت ١٤٠٧ هـ.
١٣ ـ المقدمة ـ لابن خلدون. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٣٩١ هـ.
١٤ ـ منهاج البلغاء وسراج الادباء ـ لابي الحسن حازم بن حسين القرطاجني.
١٥ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني بيروت ١٤٠٩ هـ.

٤٨٥١

الهوامش :

١. المقدمة ج ١ ص ٤٩٧.
٢. ديوان البحتري، ج ١ ص ١٢٠.
٣. ديوان البحتري، ج ١٢، ص ٢٦٢.
٤. ديوان المتنبي، ص ٥٢٠ نقلاً عن جواهر البلاغة ص ٢٨١.
٥. المصدر السابق.
٦. ذات عرق، موضع بالبادية وهو مكان احرام اهل العراق.

٤٨٠٢